خصوم يجتمعون وحلفاء يتفرّقون في نسيج معقّد

شبكة غاز العالم

صراع السيطرة بين قلب الأرض وإطار العالم



● نظرية "ريملاند" ترســم خارطة تشــمل كل أوروبا، باستثناء روسيا والجزيرة العربية والشــرق الأوسط وأسيا، وتحديدا الصين وشرق سيبيريا، وقد وصف صاحبها سبيكمان هذه المنطقة بأنها منطقة التقاء وتصادم.



حذامي خرّيف كاتبة تونسية

الناظر إلى خارطة العالم اليوم ستلفت انتباهه شبكات أنابيب تمتد لتشبه العروق في الجسم. بعضها يتركّز بكثافة في منطقة محددة، وبعضها الآخر يترامي بحرية أكبر هنا وهناك، فوق سطح الأرض وفي أعماق البحار. في مناطق تظهر أنابيب مكتملة تضجّ حركة، وفي أخرى تبدو عمليات البناء ما زالت مستمرة. هذه الشبكة هي خارطة طريق الغاز.

شيخوخة الآبار النفطية وتراجع مخرون النفط العالمي وتذبذب أسعار النفط والخلافات داخل أوبك والتوجه أكثر نحو الطاقة النظيفة، ومستجدات أخرى صاعدة، كلها أسباب تجعل الحظ ببتسم للغاز.

لعبة الحرب والسلام

النفط سبب في الحروب والصراعات مثلما هو سبب في تطور الصناعة والحضارة البشيرية. الغاز الآن يسير في طريق مشابه، لكن له يصل بعد إلى مرحلة السيطرة، ومن الصعب أن يكتسح السوق كطاقة لا منافس لها مثلما هو الحال مع النفط.



الغاز الآن يسير في طريق مشابه لطريق النفط متسببآ باحتمال اندلاع الحروب والصراعات. مع أنه من الصعب أن يكتسح السوق كطاقة لا منافس لها مثلما هو الحال مع النفط

غير أن ذلك لا ينفي أن الغاز صار بيدقا هامًا في لعبة الحرب والسلام، وعاملا من عوامل نشوب صراعات استراتيجية تدور حول عمليات استكشافه وممراته الحيوية وخطوط نقله. بات الغاز اليوم ورقة تحدّد سياسات

دول وتفرض توجّهات أخرى. يمكن الاستدلال على ذلك من خلال ملفين رئيسيين يطرحان حاليا عند الحديث عن الأبعاد الاستراتيجية للغاز، مشروع نورد ستريم2 أو "السيل الشمالي" الروسي بتفرّعاته، والغاز في شـرق المتوسط وما تشبهده تلك المنطقة من تبدّلات وتوتّرات.

عند الحديث عن الغاز كجوكر هام في لعبة السياسية والعلاقات الاستراتيجية يبرز كمثال رئيسي الغاز الروسي الذي يضع السياسات الأوروبية على طرفى نقيض، لجهة اندلاع الخلافات الدائمة مع موسكو، ولحهة الاعتماد الأوروبي الكبير عليه. لذلك يقال إنه إذا غضب الرئيس

الاتحاد الأوروبي، الأسـبوع الماضي، علىٰ فرض عقوبات على مســؤولين روس على خلفية قمع المعارض الروسي أليكسي نافالني وأنصاره. وصف هذا القرار بأنه "عقوبات الحد الأدنى" نظرا إلى تباين وجهات النظر الأوروبية حول "معاقبة"

وكانت فرنسا دعت إلى التخلي عن مشروع خط أنبوب غاز نورد ستريم2، لكن ألمانيا ردت رافضة بشكل قاطع أي خطوة تضر بهذا المشروع المصيري بالنسبة إليها. مثلما عارضت في ديسمبر 2018 تصويت الأغلبية في البرلان الأوروبي علىٰ دعوة إلىٰ إلغاء مشروع نورد ستريم2 باعتباره "مشـروعا سياسيا يمثل تهديدا . لأمن الطاقة الأوروبي".

وبينما يبقى القرار الأوروبي بشان نورد سـتريم2 محـل أخـذ ورد، تحركت واشنطن في ديسمبر 2019 بفرض عقوبات علىٰ أي شركة تساعد شركة غازبروم في مد خط الأنابيب أو تأمين السفن أو التحقق من المعدات. دفعت العقوبات الروس إلى توقيف العمل لحوالي سنة، ليستأنف في ديسمبر 2020. اكتمل المشروع بنسبة 90 فــى المئة ولم يتبق ســوى حوالي 100 كيلومتر في المياه العميقة قبالة ستاحل

لم تتوقف سيل العقوبات الأميركية. ومع الإصرار الروسي على استكمال مشـروع السـيل الشـمالي، بـدأ مجلس الشيوخ الأميركي عام 2021 بتوجيه ضربة أخرى من خلال تمرير قانون تفويض الدفاع الوطنى والذي يتضمن تشديد العقوبات على مشاريع الغاز الروسية. ويبدو أن نورد ستريم2 من بين

الملفات القليلة التي يلتقي فيها الرئيس الديمقراطي جو بايدن مع سلفه الجمهوري دونالد ترامب. وقد وصف بايدن نورد ســتريم2 بأنه "أســوأ صفقة وروبية"، وقال إنه "يقوي روسيا ويضعف نفوذ دول مثل أوكرانيا".

من المؤكد أن أوروبا تريد فطام نفسها عن الغاز الروسي لكن حاجتها إلى الغاز تتصاعد، وهي لا ترى في الوقت الراهن بديلا يضمن لها ذلك، بينما تمسك روسيا حيّدا بورقتها الرابحة.

أوروبا، القلقة والغاضبة من الكرملين، مضطرة إلى التعاون مع روسيا خاصة مع توقّف حقول الغاز في بحر الشمال، وانقطاع صادرات ليبيا، وتراجع كمية الغاز القادم من الجزائس، وغياب بدائل أميركية ناجعة من حيث التكلفة والبنية التحتية التي يمكن أن تنافس أو تعوّض، جغرافيا وماديا، البنية التحتية الروسية.

فتحت غازبروم مسارات نحو الضفة الأخرى من العالم، وتحديدا نحو الصين، التي تتضاعف حاجتها للغاز، وتشكل هي الأخرى مصدر جذب لجهات عالمية منتجة للغاز مختلفة. ويتنافس المصدرون الرئيسيون للغاز مثل أستراليا وقطر والولايات المتحدة للحصول على حصة جيدة في سـوق الغاز الصيني. وتحرص

تركمانستان وأوزبكستان وكازاخستان فلاديمير بوتين فإن أوروبا ستشعر بالبرد . تىبعە للصين. بعد جـدل طويل، اتفق وزراء خارجية

تأثر هذا المسروع في بدايته بتوتر العلاقة بين موسكو وأنقرة بعد إسقاط الطائرة الروسية في نوفمبر 2015، حيث أعلنت موسكو تعليق المشروع، ليتم استئناف العمل به مع عودة العلاقات وتم الانتهاء منه في 2018.

لم تعد تركيا تكتفى بأن تكون منطقة

لهيب شرق المتوسط

الأرض". واعتبر ماكندر وسمّاها "جزيرة

علیٰ هذه الجزيرة يسيطر على العالم كله. وظهرت نظريته في بداية القرن الثامن عشر، وارتبطت بالتوسع البريطاني والسعي إلى مواجهة تمدّد الإمبراطورية الروسية.

أيضا على رفع حصتها من الغاز الذي

قلق السيل التركي

أيضا، من أبرز مشاريع خطوط أنابيب الغاز الروسية الكبرى الأخرى ترك ستريم أو "السيل التركيي". وهو خط أنابيب لتصدير الغاز من روسيا عبر أنابيب ناقلة تمر من البحر الأسود إلى تركيا وجنوب شرق أوروبا.

وتواجه تركبا معضلة انتهاء العقود طويلة الأجل مع أبرز موردي الغاز الحاليين؛ أذربيجان عبر خط باكو – تبليسي - أرضروم، وروسيا عبر خطوط التيار الأزرق وخط عبر البلقان، وإيران عبر طريق تبريز - دوغوبايازيت.

لكن ذلك لا يلغى الرغبة التركية في التحرر من القبضة الروسية، خاصة وأن أنقرة جربت التكلفة الاقتصادية للغضب

إلى استغلال الظروف الاستتراتيجية التي دفعتها إلى التخلي عن سياسة صفر مشاكل مع الخارج إلى اتباع سياسة اندفاعية مكلفة لكن ضمنت بعضا من المصالح خصوصا في البلدان التي صعد فيها الإسلاميون إلى الحكم، والأتفاق الموقع مع حكومة الوفاق في ليبيا في 2019 أبرز مثال.

تبدو منطقة شبرق البحر المتوسيط اليوم قلب العالم المتفجّر. وفيها يمكن أن تلتقى نظريتا هالفورد ماكندر عن الـ "هارت لأنــد" أو "قلب العالم" بالعربية، ومنتقده نيكولاس سبيكمان ونظريته المضادة "ريملاند" أو "إطار القارات قارة واحدة

وفي المقابل، ترسم الـ"ريملاند" خارطة تشمل كل أوروبا باستثناء روسيا والجزيرة العربية والشرق الأوسط وأسيا، وتحديدا الصين وشرق سيبيريا. وقد وصف سبيكمان هذه المنطقة بأنها منطقة التقاء وتصادم.

وفى مطلع الألفية أعلنت هيئة المسح الجيولوجي الأميركية عن اكتشافات ضخمة من الغاز. فضرب جنون الغاز هــذه المنطقة وتســارعت وتيــرة "حرب التنقيب" فيها لترفع معها حدة التوترات السياسية والتهديدات الاستراتجية. وتكونت تحالفات جديدة وولدت تكتلات لا يستهان بها. وأعيد فتح ملفات قديمة وطفت صراعات كامنة على السطح، وسُطّرت خرائط وفتحت ممرات

وفى السنوات الأولىٰ كانت الحرب خامدةً. وعملت أغلب الشيركات و الدول المعنية، منها إسرائيل ومصر، بهدوء علئ تطوير حقولها وعقد الصفقات وجذب الاستثمارات في قطاع الغاز. لكن في السنوات الأخيرة بدأت المياه تضطرب وبدأت ملامح "العسكرة" تظهر

وانطلقت الصافرة حين أرسلت تركيا سفينة للتنقيب عن الغاز برفقة سفنها العسكرية إلى المياه قبالة ساحل كاستيلوريزو اليوناني.

مع قبرص واليونان، وتأثرت علاقاتها سلبا بأغلب الدول المتوسطية الأوروبية والعربية، تخشيئ من أي تغيير في الخارطة السياسية للعالم يمكن أن يؤثر على أفق الغاز المربح وتبحث عن فرصة لـ"تنتقم" من جغرافيتها.

وعلي الرغم من سياحلها على البحر المتوسط، فإن المخارج البحريـة لتركيا محاصرة بالعديد من الجرز اليونانية المتاخمة، وحدودها البحرسة مقسّدة بجزيرة قبرص. وهنا جاء الحل مع اتفاق ترسيم الحدود البحرية النذي وقعته مع

وصف بايدن هذا المشروع بأنه "أسوأ صفقة أوروبية"، وأضاف إنه "يقوّي روسيا ويضعف نفوذ دول مثل أوكرانيا".

حكومة الوفاق الليبية.

الغاز الروسي يضع السياسات الأوروبية على طرفي نقيض، وبينما تتفجر الخلافات السياسية مع موسكو، يبقى الأوروبيون يقولون إنه إذا غضب بوتين فإن أوروبا ستشعر بالبرد على الفور

سكب هذا الاتفاق المزيد من الزيت علىٰ نار علاقات أنقرة الخارجية المتأزمة، وأرغمت سياسة الاندفاع التركية عددا من دول المنطقة على اتخاذ موقف مماثل، فأقدمت فرنسا علئ خطوة غير مسبوقة ضد عضو حليف في الناتو، حيث أرسلت أنشطة الغاز التركية في مياه البحر

كما أعلنت وزارة الدفاع اليونانية أن قبرص واليونان وفرنسا وإيطاليا اتفقت علىٰ نشر وجود مشترك في شرق المتوسط في إطار مبادرة التعاون الرباعية (إس كيو إيه دي)". ونشرت إيطاليا أيضا قُواْت عسكرية في شكرق المتوسط مُ وكثَّفت تدريباتها مع فرنسا

ويدور جدل بين دول الاتحاد الأوروبى منذ العام الماضى بشئان فرض عقوبات على تركيا بسبب أنشطتها في شرق المتوسط. وينتظر أن يصدر القرار النهائي خــلال القمة الأوروبية في مارس

ودخلت الولايات المتحدة أيضا المعركة، فهي تسعىٰ إلى مواجهة تحركات تركيا التوسيعية في المنطقة، ودعم شركات الطاقة الأميركية العاملة في مياه المتوسط، وتطوير مصادر تصدير غاز جديدة إلىٰ أوروبا لإضعاف

واتخذت واشنطن إجراءات تصعيدية، فقد وافق الكونغرس الأميركـي في ديسـمبر 2019 علىٰ رفع حظر الأسلّحة المفروض على قبرص منذ عام 1987، وتم إقرار تحويل المساعدات

أما سوريا التي لا تنتج الغاز بكميات مؤثرة، فهي منطقة استراتيجية. ويوفر موقعها الجغرافي ممرا للدول التي تبحث عن منفذ يربطها بالبحر المتوسط، مثل إيران والدول التي تريد الوصول إلى

أوروبا من دون أن تضطر إلى المرور عبر تركيا. وقد تردد في هذا السياق حديث عن مشروع مدعوم من واشتنطن لإنشاء أنبوب لتصدير الغاز القطري إلى أوروبا

عبر مدينة حمّص. وكانت مصر واليونان ردتا على الاتفاق التركي الليبي بتوقيع اتفاق تاريخي لترسيم الحدود البحرية في القاهرة، يكمل اتفاقا سبق وأن تم توقيعه بين مصر وقبرص لتعيين الحدود البحرية بما يحاصر تركيا ويقلل من الفرص التي كانت تتطلع إليها بشان مد نفوذها

في قلب هذه اللعبة تُحرّك إسرائيل أحجارها في كل الاتجاهات على رقعة طريق الطاقة الجديدة. وقد مندتها عضويتها في منتدى شرق المتوسط مساحة هامة. وبدءا من العام 2025، تعتزم إسرائيل نقل الغاز الطبيعي إلى أوروبا، عبر خط الأنابيب "إيست ميد". ومن المقرر أن يمتد خط الأنابيب من إسرائيل إلى قبرص ومن هناك إلى جزيرة كريت ومن ثم إلى برّ اليونان الرئيسي، وبعدها سيتم نقله إلى إيطاليا عبر خط أنابيب

تحالفات جديدة

اتخذ منتدى شرق المتوسط، الذي اليونان، إسرائيل، الأردن، فلسطين، قبرص، وإيطاليا، وزنا دوليا هامًا بعد منح الولايات المتحدة عضوية مراقب دائم، كما اقترحت فرنسا الانضمام كعضو، ومؤخرا انضمت دولة الإمارات التي تملك احتياطيات ضخمة من الغاز الطبيعي، كعضو مراقب في هذا المنتدى الذي يتحول شيئا فشيئا إلى منظمة دولية للدول المنتجة والمستوردة للغاز ودول العبور بشرق المتوسط.

وفى فبراير الجاري، استضافت أثينا "منتدى فيليا 2021" لبحث التطورات والقضائا الإقليمية في المنطقة وفي منطقة شرق البحر المتوسط. ولم يقتصر هـذا المنتدى علي الدول المتوسطية، فقد شاركت فيه السعودية والبحرين إلىٰ جانب الإمارات، ومصر واليونان وقبرص وفرنسا. وتجمّع "الصداقة" هذا يشي بشكل واضح كيف أن القصة تتجاوز خطوطا لتصديس الغاز لتكون

قضية أمن قومي واستراتيجي. تحركات كثيرة أوروبية وأميركية وعربية ترسم أشكالا متداخلة لخارطة أمـن الطاقة في العالـم وتدخل في صلب تحوّ لات استراتيجية لا تقتصر فقط على تلك المنطقة الجغرافية فحسب، بل تمتد تفاعلاتها وتأثيراتها إلىٰ مناطق مختلفة من العالم، من الشرق الأوسط إلى القوقاز وأسيا الوسطئ، تمتد الخطوط من بحر قزوين إلى المتوسط، وتمتد معها خارطة من الصراعات والتحالفات، تجمع خصوما في طرف وتفرّق بين حلفاء في طرف مقابل، ضمن لعبة السياسة والجغرافيا اللتين غالبا ما تكون الطاقة هى الحبل السري الرابط بينهما.

